الحيوان العظام

يذلُّ الحيوان الاعجم للانسان لان الانسان أعقل منهُ

لولا العقول لكان ادنى ضيغم ادنى الى شرف من الانسان

ويرى الانسان نفسهُ صغيرًا بجانب الحيوانات الكبيرة الفد الضخمة الجثة كالفيل والزرافة وفرس النهر والكركدن وما شاكل. فان متوسط طولهِ متر وسبعون سنتيمترًا ومتوسط ثقلهِ خمسة وسبعون كيلوغرامًا واما الفيل فطولهُ من طرف نابهِ الى طرف ذنبهِ نحو ثمانية امتار وعلوهُ نحو ثلثة امتار عادة وثقلهُ يزيد على ١٦٠٠ اقة . والكركدن طولهُ نحو اربعة امتار وعلوهُ نحو مترين وكذلك فرس النهر

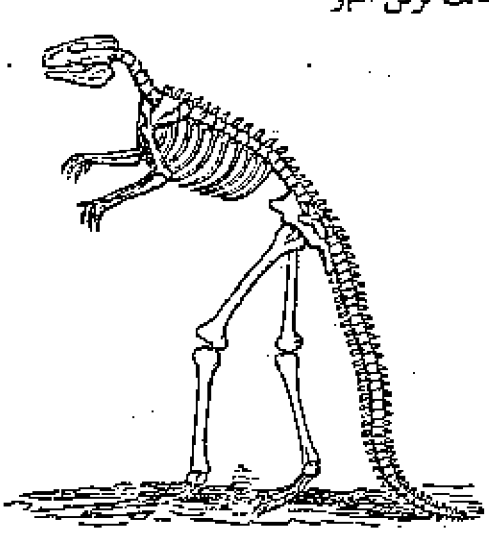

الشكل الاول الهدروسوريس

ولكنّ الحيوانات ألّتي نستعظمها اليوم من ذوات الاربع تُعدُّ صغيرة بالنسبة الى انواع من الزحافة ألّتي عاشت وانقرضت في الاحقاب الخالية ولم يبقَ منها غير آثارها وعياكلها ألّتي يجدها العلماء بين احافير اوربا واميركا . ولكي لا نطيل الكلام في هذه الزحافات نقتصر على ذكر فصيلة تعرف عند العلماء بالديناصوريات اي الضباب الهائلة وقد سموها كذلك لمشابهتها للضباب . وقد وصفناها في الجزء الثاني من السنة الثامنة من المقتطف حيث قلنا :

" والديناصوريات اي الضباب الهائلة الكبر انواع عديدة منها نوع كان جسمهُ وقوائمهُ كجسم

الفيل وقوائمهِ وشكلهُ كشكل فرس النهر وعلى قدميهِ براثن كبراثن بعض السلاحف ويداهُ دون رجليهِ ضخامةً وبراثنها عقفاء كالكلاليب وطولهُ نحو ثلاثين قدماً على المرجح وطعامهُ النبات واسمهُ عند الافرنج إكْتِيُوصُورُس لمشابهة تخيلية بينهُ وبين حيوان مسمى بنحو هذا الاسم اليوم. ومنها حيوان سموهُ هدروصوروس يقينيا رسم هيكلهُ في الصفحة السابقة عن وصفهِ فليتصور القارئ ان هيكلاً كهذا طولهُ ثمانٍ وعشرون قدماً قد اكتسى لحماً وجلداً مع سائر ما يتم بهِ البدن من الاحشاء والاوتار والاعصاب والاوردة والشرايين ويتخيل الحياة قد سرت فيهِ فحفزتهُ الى الحركة والنشاط فيعلم بعض ما كان عليهِ من ضخامة الجثة وهول المنظر وعظم القوة. وهو مع ذلك دون ما كان عليهِ غيرهُ من هذهِ الضباب الهائلة فقد وصف الاستاذ مارش حيواناً منها اسمهُ اتلنتوصوروس كان طولهُ نحو مئة قدم فهو اكبر ضب يعرف. وآخر اسمهُ برنتوصوروس كان طولهُ خمسين قدماً ورأسهُ على غاية الصغر بالقياس على بدنهِ وعنقهُ طويلة لدنة وجثتهُ قصيرة ورجلاهُ ضخمتين وكل عظامهما مجتمة ومسحة الرسغ من كل يدٍ تساوي الارض مرّاً مربعاً وذنبهُ كبيراً. ولا يعرف حيوان اصغر منهُ رأساً بالقياس على بدنهِ فان جمجمتهُ اصغر من الفقرة الرابعة او الخامسة من فقرات عنقهِ واخف منها وزناً وثقلهُ في حياتهِ اكثر من ستة عشر الف اقة وكان يقتات بالنبات ويقطن الماء والياسة". انتهى

اما اكبر الحيوانات التي تعيش في عصرنا فهي الحيتان[1]. وهي تقارب الضباب التي ذكرناها جسماً الاَّ انها احدث منها عهداً في الوجود. وكلها من ذوات الثدي وتتنفس الهواء كحيوانات البر وتلدها اربعة اقسام ودمها حار وتلد اولادها ولادة فلذلك كانت اقرب الى ذوات الاربع منها الى السمك. وكونها تشبه السمك صورة برهان على ان الاحياء تتشكل بالشكل الذي يلائم اوساطها

والذي يمعن النظر في اعضاء الحيتان يرى ان اصلها حيوانات برية لا مائية حتى ذهب بعضهم الى ان اصلها من ذوات الحافر غير ان اسنان الحيتان القديمة منها تشبه اسنان اكلة اللحوم لا اكلة النبات. وذهب عالم من علماء الحيوان الى ان الحيتان كانت تعيش في بادئ امرها على سواحل الانهار ثم تشكلت بالشكل الذي يسهل العوم عليها. فلما اتقنت العوم والسباحة هاجرت الى البحر فكبر حجمها وشابه شكلها شكل السمك شيئاً فشيئاً. ودليلهُ على ذلك ان ما يعيش من انواع هذه الفصيلة في الماء العذب يشبه ذوات الثدي البرية اكثر

(١) الحيتان جمع حوت وهو في اللغة السمك مطلقاً. وهنا معناهُ عند اهالي مصر لكنهُ غلب على الحيوانات البحرية الكبيرة التي نحن بصددها

عما تشبهها الانواع التي تعيش في الماء المالح فكانهُ حلقة تصل بين الحيتان الاصلية الارضية وبين التي هاجرت منها الى البحر

قلنا ان الحيتان تشبه السمك في شكلها كما يرى في الشكل الثاني والثالث غير ان رأسها كبير بالقياس على بدنها ولاكثرها اسنان في الفك السفلي وعيونها صغيرة واذانها وراء عيونها وانوفها في قم رؤوسها ولا يكاد يكون لها اعناق لان فقراتها العنقية قد رقت كثيرًا حتى ان طول العنق لا يزيد على قدم واحدة في اكثر الحيتان . وللحوت طرفان امامیان يحتويان على جميع العظام والمفاصل التي تكون في الاطراف الامامية في ذوات الثدي من حيوانات اليابسة ولكنها متغيرة عنها في الشكل تغيرًا عظيمًا ولكل منهما خمس اصابع وقد يكون لهُ اربع فقط في بعض انواع الحيتان . واما الطرفان الخلفيان فلم يبقَ من آثارهما غير عظيمات قليلة تحت القسم العجزي من السلسلة الفقرية . وليس للحيتان تراقي ولكن الواح كتفها كبيرة جدًّا . وقد تقدَّم ان مناخرها في قم رؤوسها ولذلك كانت جماجمها مختلفة كثيرًا عن جماجم غيرها من ذوات الثدي في شكلها . والانثى منها ثديان . والحيتان تسبح وتغوص وانواعها مفتوحة ولا تختلف خلافًا لغيرها من ذوات الثدي والسبب في ذلك ان حناجرها طويلة تصل الى فتحات مناخرها في مؤخر انواعها فيتصل مخرا كل حوت برئتيهِ بواسطة انبوبة غير مفتوحة في القصبة فاذا فتح فاهُ وملأهُ ماء لم يجد لهذا الماء منفذًا في قصبتهِ حتى ينزل منهُ الى رئتيهِ

ويتوهم العامَّة ان الحيتان اذا صعدت الى سطح البحر لتتنفس قذفت الماء من جوفها صعدًا في الهواء . والصواب ان الحوت يغوص في الماء مدة من الزمن ثم يصعد الى سطحهِ ليتنفس الهواء فيبتدئ نفسهُ بالزفير اي باخراج الهواء من رئتيهِ فيدفعهُ منهما بزخم شديد ويكون هذا الهواء مشبعًا بخارًا مائيًّا على درجة عالية من الحرارة فمتى صعد في الهواء ولامس ما هو ابرد منهُ تكاثف البخار المائي الذي فيهِ واشبه عمودًا من الضباب او الزبد المتطاير في الهواء . وكثيرًا ما يبتدئ الحوت بالتنفس قبلما يخرج مخرجهِ من الماء فيحمل نفسهُ بعض الماء ويذهب بهِ صعدًا في الهواء

وغنيٌّ عن البيان ان مراقبة الحيتان العظام غير يسيرة لانها تقطن الاعماق وقلما يتيسر للعلماء رؤية ما يقذفهُ البحر منها على شاطئهِ والقليل الذي يرونهُ تكون جثتهُ في الغالب مشوهة او متغيرة عن اصلها . وكل ما يعلم عن الحيتان العظام وعوائدها وطبائعها منقول عن محبي البحث والمراقبة من الذين يتاجرون بها . وهؤلاء علموا عنها شيئًا وغابت عنهم اشياء

والحيتان تعيش في كل البحور من خط الاستواء الى حد المنطقة القطبية . وكثير من

انواعها الصغيرة مثل الدلفين او النحس تصعد في مصبات الانهار مسافات متفاوتة وبعضها لا يعيش في غير الانهار . وكلها تتغذى بالحوم ما عدا نوعاً من النحس اكتشفوهُ حديثاً في انهار بلاد كمرون في سواحل افريقية الغربية والمظنون انهُ يتغذى بالنبات لا بلحم الحيوانات . اما الحيوانات التي تتغذى الحيتان بها فكثيرة الانواع جدًّا ولا نسبة بينها وبين ما يأكلها من الحيتان في كبر حجمها فالحوت الكريتندي وهو من اكبر الحيتان حجماً لا يأكل الاَّ حيوانات صغيرة جدًّا حتى قيل انهُ لو بلع سمكة صغيرة لمات مختنقاً بها واما الحوت المعروف بالقتال وهو ليس من الحيتان الكبيرة فيأكل النقمة والحيتان الصغيرة . واكثر الحيتان حيوانات مسالمة تفرُّ مما يطاردها ولا تؤذي ما عدا الحوت القتال المذكور آنفاً فانهُ شرس لا يؤمن شرهُ . وهي تسير في الماء امراراً وقد يجتمع في السرب الواحد ألوف منها تأتلف وتحب

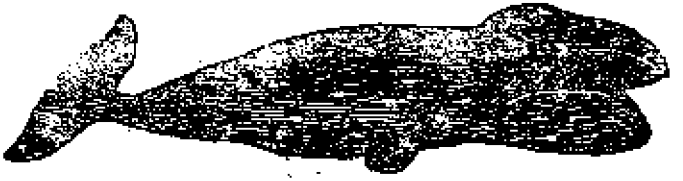

(٢)

(١)

(١) الحوت الكريتندي (٢) الحوت السبرمتيتي

بعضها بعضاً حب الاخوة و يروي صيادوها القصص والنوادر الكثيرة عن حب اناثها لصغارها وعنايتها بها وحنوها عليها

وتقسم الحيتان كلها قسمين عظيمين البالين او ذوات عظم الحوت المعروف بالبالين وهو ينوب مناب الاسنان فيها وهذه هي الحيتان الصحيحة . وذوات الاسنان . غير ان بعض العلماء يرى ان ذوات الاسنان نشأت من اصل غير اصل ذوات عظم الحوت وان القسمين من قبيلتين مختلفتين وليسا قبيلة واحدة

اما الباليات او الحيتان الصحيحة فاشهر مميزاتها خلوُّ انواعها من الاسنان بعد ما تولد وطلوع عظم الحوت او البالين مكانهُ وهذا العظم عبارة عن صفائح قرنية مسطحة مثلثة الشكل

مدلاة من سقف الفم ويختلف طولها باختلاف نوع البال او الحوت الذي تكون فيه وهي ملساء من اطارج مهذبة الحروف من الداخل بحيث يظهر كأن فم البال ممتلئ شعراً لمن ينظر اليه من الاسفل والغرض من هذا العظم تصفية الماء عن الحيوانات الصغيرة والهلاميات التي تكون فيه ثم يبلعها الحوت وكيفية ذلك ان الحوت يفتح فاهُ الكبير فيمتلئ ماء وما فيه من الحيوانات الكثيرة الصغيرة . ثم يغلق فاهُ فيجري الماء بين تلك الصفائح القرنية ويخرج من بين شفتيه وتبقى الحيوانات بين الصفائح فيلتهمها

ومن اشهر انواع الباليات الحوت الكريتلندي (شكل ٢) واخص صفاته كبر رأسه حتى يبلغ ثلث طوله وتقوس فمه وكثرة صفائح البالين فيه وطولها فانها قد تزيد عن ٣٨٠ صفيحة على كل جانب من فكه ويبلغ طول التي في اواسط فمه منها عشر اقدام او اثنتي عشرة قدماً ولونهُ اسود مع بياض في عنقه وزعانفه ولهُ ندبة على طرف خيشومه وطولهُ من ٥٠ الى ٦٠ قدماً وهو يعيش في الجهات القطبية بين درجة ٨٢ من العرض شمالي ودرجة ٥٥ جنوباً وطعامهُ الاسماك القشرية والهلامية ويطفو قريباً من سطح الماء وهو يأكلها ويعيش وحدهُ احياناً ويجتمع ازواجاً احياناً أُخرى . ويغوص نحو ربع ساعة تحت الماء ثم يطفو ليتنفس وقال بعضهم ان حوتاً رمي بحربة فغاص نحو ٥٩ دقيقة تحت الماء . وانثاهُ تلد في اشهر الربيع حوتاً واحداً وترضعهُ مدة سنة ويبقى البالين في فمه مدة الرضاع وهي تحب ابنها حباً شديداً ويتعلق ابنها بها شديداً ايضاً فاذا صادها الصيادون صادوا ابنها معها بلا عناء ولا مشقة

اما صيد الحوت الكريتلندي فلدهنه وبالينه فانهم يستخرجون ١٣٠ برميلاً من الدهن من الحوت الواحد عادة وقد استخرجوا ٢٨٠ برميلاً من بعض الحيتان ويستخرجون منهُ من الف الى ثلثة آلاف رطل مصري من البالين . ولا يخاف الصيادون شرَّاً من هذا الحوت لانهُ جبان لا يهجم على صيادهِ ولكنهُ يغوص الى اعماق اللجج اذا جرح ويخشى ان يجر قارب الصيادين اليها معهُ . ومعدل سرعة هذا الحوت اربعة اميال في الساعة واما اذا جرح او ذعر فيقطع نحو ثمانية اميال في الساعة . وصيدهُ قديم وقد اصطاد الانكليز وحدهم نحو ٨ آلاف و٤٠٠ حوت من سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٨٧٩ ولذلك اشتدَّ حذر هذه الحيتان من الصيادين حتى صارت لا تمكنهم من الدنو اليها

وكان الناس يصيدونها قبلاً في زوارق مكشولة فيرمونها بحراب كبيرة مربوطة بحبال متينة فمتى نشبت بها طعنوها حتى تموت . وكيفية ذلك انهُ اذا رأى الناظر حوتاً عن رامس ساربة نادى الرجال فدلوا القوارب وجذفوا اليه حتى اذا قرب منهُ قارب رماهُ احد الرماة

بحربته وجذف اليابون الى الوراء فرارًا منهُ . فيغوص الحوت بسرعة فائقة حتى روّي انهُ غاص عموديًّا فصدمت جمجمتهُ قعر البحر على عمق ٨٠٠ يرد فتكسرت . والغالب انهُ يسبح إلى قطعة جليد من القطع التي تطفو على الماء في تلك الجهات والحربة في بدنهِ فيسحب الحبل الذي تكون مربوطة بها سحبًا شديدًا حتى يحترق اذا لم يكن مبتلًّا من فركهِ على جوانب القارب . والمعتاد ان يكون طول هذا الحبل اربعة آلاف قدم وقد يفرُّ الحوت والحربة في بدنهِ ثلثة اضعاف هذه المسافة وربما ضرب القارب بذنبهِ الذي يكون طولهُ ٥ اقدام وسمكًا وعرضهُ ٢٠ او ٢٥ قدمًا فيقلبهُ بمن فيهِ وبعد ما يغوص مدة قارًّا يصعد الى وجه الماء ليتنفس فيرميهِ الصيادون بالحراب حتى يقتلوهُ ويجروهُ الى السفينة حيث يجردون الدهن عنهُ ويأخذون الصفائح التي فيهِ ويطرحوا الباقي لسمك البحر . ويرى القارىء صورة هذا الصيد من الشكل الرابع

ثم انهم تفننوا في صيدهِ فصنعوا مدافع تطلق بها الحراب على الحيتان عوضًا عن ان يرميها بها الصيادون . واما الآن فقد اخترعوا مدافع كبيرة متقنة الصنع لاطلاق الحراب فيركّب المدفع في مقدمة البواخر نفسها وتطارد البواخر الحيتان حتى تدنو منها ويقف الرامي وراء المدفع ويصوّبهُ إلى الحوت و يطلق منهُ حربة منها صنانير متحركة وفي راسها مادة متفرقعة فتنشب الحربة وصنانيرها بالحوت وتتفرقع المادة حتى اذا اصابت مقتلًا منهُ قتلتهُ في الحال ووقت الصيادين شرَّ غوصهِ وسرعة سيرهِ

ومن اشهر انواع الحيتان ذات البالين ايضًا الحيتان الزعنفية الظهر وهي دون الحوت الكبر يتلدي في دهنها و بالينها ولذلك لم يعبأ الصيادون بصيدها الا بعد ما قلَّ عليهم الحوت الكبر يتلدي وهي تقطن كل البحار ما عدا بحار المنطقتين القطبيتين وتتتات بالامهات وذوات القشور وطول بعض انواعها من ٧٠ الى ٨٠ قدمًا وقد تبلغ ٨٥ قدمًا او اكثر وطول راسها ربع طولها او خمسهُ ولها زعنفة صغيرة في ظهرها على بعد ثلثي المسافة من راسها الى ذنبها . تقذف البحر حوتًا منها على ساحل بيروت ورأيتهُ فكان كالمركب الكبير لتلاطم الامواج عن جانبيهِ . وقذف حوتًا آخر على ساحل مدينة صور ولا تزال عظام احدهما محفوظة في المدرسة الكلية السورية الانجيلية ببيروت

وهذا النوع هو اكبر الحيتان كلها مدًّا واسرعها سيرًا ولقوتهِ يشب على وجه الماء احيانًا فيرى الناظر طولهُ كلهُ ومتى تنفس صعد نفسهُ في الجو إلى علو عظيم فيستدلُّ الناظر عليهِ عن بعد من رؤية نفسهِ ومتى دار لغرض يرفع ذنبهُ العظيم الثقل في الهواء ثم يشق بهِ الماء بقوة

لا يهد لها مثيل في غيرها من الحيوانات. وقد سهل صيدهُ وقلَّت اخطارهُ منذ اخترعوا المدافع التي تطلق الحربة ذات المواد المتفرقعة كما ذكرنا آنفاً.

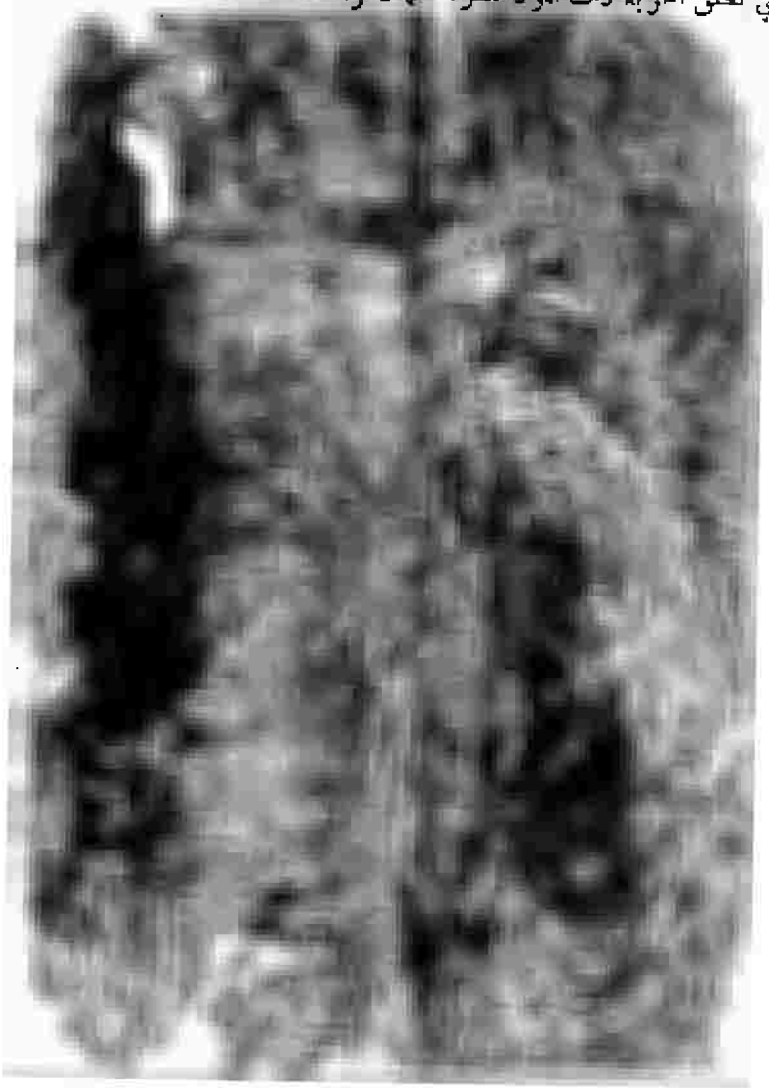

الشكل الرابع صيد الحوت

اما الحيتان ذوات الاسنان فاشهرها وانفعها للانسان الحوت المعروف عند الفرنسويين بالكشلو (شكل ٣) وهو الذي يستخرج منهُ معظم السمك ببلغ طولهُ من ٥٥ الى ٦٠ قدماً واما اتقاءُ فلا تزيد عن نصف هذا الطول وهي ادق منهُ جثة. ولها اسنان طويلة في فكها

السفلي واما نكهُ العلوي فليس فيهِ الاَّ آثار الاسنان . ولسانهُ وباطن فمهِ ابيضان لامعان وعينهُ فوق زاوية فمهِ ووراءها ثقب صغير جدًّا هو اذنهُ وليس لهُ زعنفة في ظهرهِ ولون ظهرهِ اسود او اسمر ولون صدرهِ وبطنهِ اغبر وهو يقطن البحور العظام و يجتمع اسرابًا من الذكور والاناث المختلفة الاعمار يسير في مقدمة السرب منها خلائف او ثالثة من الحيتان الكبار والاناث تدافع عن صغارها وعن بعضها البعض فاذا قتل الصيادون انثى منها سهل عليهم اصطياد عدة غيرها . وهذه الحيتان تلعب في الماء تقفز من الماء قفزتين او ثلاثًا فيرى الناظر عن السارية اثرها في الماء على بعد ستة اميال منهُ . واذا زعرت غاصت سريعًا الى القعر ولو كانت مضطجعة اتقيًا على بطونها . وطعامها الحيوانات الفلامية والاسماك الصغيرة و يقال ان هذا الحوت يفتح فمهُ الابيض في وسط الماء فتى رأت الاسماك بياضهُ الناصع جاءت اليهِ ليمتهُ عليها و يلتهمها ولكن هذا القول لم يثبت بدليل

ويحيط بهذا الحوت طبقة دهنية سميكة يستخرج منها ثمانون برميلاً من الزيت اذا كان كبيرًا . وفي رأسهِ تجويف فيهِ مادة زيتية تغرف منهُ وتجمد حتى عرفت للهواء وتعرف بمن السمك . اما زيتهُ فاحسن من دهن الحيتان السابق ذكرها واما من السمك فيستعمل لصنع الشمع وغيرهِ . و يتكون في امعائهِ جسم عطر يعرف بالعنبر و يلتقط طافيًا على وجه الماء لا من امعائهِ عادةً

ويروى عن صيد هذا الحوت واخطارهِ نوادر كثيرة يتصورها القارئ مما ذكرناهُ عن صيدها آنفًا و يضيق المقام عنها فنقتصر على ذكر نادرة رواها الدكتور طمسن في مصنف لهُ عن تاريخ زيلندا الجديدة قال : —

رأى الصيادون صبيحة يوم حوتًا على وجه ماء الخليج فقذفوا اليهِ في قاربهم وتناول صيادٌ من اهل نيوزيلندا حربتهُ ورماهُ بها فاخطأهُ وفرَّ الحوت تتبعهُ ساعات في حر الشمس المحرقة حتى دنوا منهُ فرماهُ فاخطأهُ ثانية فصاح بهِ رفاقهُ يسبونهُ و يلعنونهُ ثم دنوا من الحوت ثالثة فما كان من الرجل الاَّ ان وثب من القارب وركب على ظهر الحوت ولم يكن الاَّ كلمح البصر حتى غاب الحوت والرجل عن الابصار وكثر الزبد وتلاطم الامواج وسار القارب بالصيادين ولم يروا الاَّ الماء يدور ملطخًا بالدماء ثم ابصروا شبحًا اسود يموج وشعروا بجبل الحربة يشتد والقارب يسير وهو يشق الماء شقًا والحوت يجري بهِ وقد نشبت حربة الرجل في بدنهِ ورجع الرجل الى مكانهِ في القارب ولم يكن احد يصدق انهُ يعود اليهِ سالمًا . انتهى